السلطة وسوء استخدامها من وجهة نظر نفسية "الصورة السيئة للسلطة والنرجسية"

ترجمة وإعداد: أ.د. سامر جميل رضوان
Prof. Dr. Samer Rudwan
جامعة نزوى-سلطنة عمان
Nizwa University-Oman
فولكر فاوست¹

مقدمة

يقول المثل الشعبي الألماني: "حيث تكون القوة، يهرب العقل؛ وحيث يكون العقل، تختفي القوة". حتى لو لم يكن هذا المثل صحيحاً بالطبع، إلا أنه من المتوقع أن تخطر على بالنا الكثير من الأمثلة الحزينة. والشيء نفسه ينطبق على السمات النرجسية: التقدير الذاتي غير المنطقي، والمبالغة، والخيلاء، والاتجاه النفعي والأناني، والحسد والغطرسة، وحب الذات والتضخم والغرور، والقناعة غير الواقعية بخصائصهم مثل النجاح، والإبداع، والجمال، وبشكل خاص السلطة. إننا نسمع عن مثل هؤلاء البشر يومياً ونقرأ عنهم، ويتعين على البعض منا تحمل وجودهم في محيطنا المباشر. وهؤلاء موجودين في السياسة ودائرة الضوء في وسائل الإعلام وكذلك في الاقتصاد وعالم الأعمال وفي ميدان الثقافة والتجارة والرياضة والبيروقراطية في المجال الديني والعلمي...إلخ.

من الواضح أننا نعيش في "عصر النرجسية" (عشق الذات – التمرکز على الذات- الإعجاب بالنفس - الأنانية). فإذا أضيف إلى ذلك الادعاءات بالسلطة أو حتى إساءة استخدامها، فإن المشكلة تصبح عندئذ كاملة.

ولعله هناك مراحل تاريخية كثيرة تسببت فيها شخصيات نرجسية في السلطة بالأذى والضرر والمعاناة. غير أنه في الدول الديمقراطية اليوم فإن المراقبة الشديدة تمنع من إساءة استخدام السلطة. فكلما ارتفع المنصب زادت المراقبة والضبط.

¹ Faust, V. (n.d.). Macht und Machtmissbrauch aus psychologischer Sicht. Retrieved 2 2018, from http://www.psychosoziale-gesundheit.net/psychohygiene/pdf/faust3_macht.pdf:
<http://www.psychosoziale-gesundheit.net/index.html>

وعلى أية حال فإن السلطة ظاهرة ساحرة، تثير أكثر المشاعر والأوهام والتقييمات تناقضاً، كما يقول الخبراء.

يستعرض المقال التالي وجهات نظر علم النفس والعلاج النفسي والطب النفسي في موضوع السلطة وإساءة استخدامها. لقد تراكمت الكثير من المعرفة وبعضها جديد ومثير للاهتمام، ويوضح الخلفية النفسية، ومن ثم فهي تقدم لنا فهماً أفضل لهؤلاء المتسلطين

السلطة والنرجسية

يسبب لنا مصطلح السلطة الشعور بالضيق. وفي الوقت نفسه، نعلم جميعاً أن السلطة بالمعنى البناء توفر الأساس لحياة مشتركة تقوم على التعاون، أي للقانون والنظام. ولكن عندما نفكر بمصطلح السلطة، فإن ذلك غالباً ما يكون في سياق سلبي، ذلك أن صورة السلطة صورة سيئة في أذهان البشر. "ومن الواضح أن السلطة ظاهرة ساحرة تثير مشاعر وتخيلات وتقييمات شديدة التباين. فمن ناحية يتم تبخيس السلطة ولعنها بل وحتى شيطنتها، ومن ناحية أخرى تسحرنا. أننا نعجب ونحسد أولئك الذين يمارسونها. إننا نحلم سرا بأن لدينا سلطة لا نهائية خاصة بنا ونقلل من أهمية مشاعر الذنب التي تستثيرها، وطبعاً مع الرغبة بأن نستخدم هذه القوة اللانهائية لفائدة البشرية." بهذه المقدمة التي يمكن لأي شخص يمتلك اتجاهافياً من النقد الذاتي أن يؤيدها، يبدأ وورث. H. J. Wirth من دار النشر النفسية والاجتماعية Psychosocial Publishing في مدينة غيسن Giessen إسهامه في التعمق في "النرجسية المرضية وإساءة استخدام السلطة في السياسة" في كتابه القيم حول النرجسية.

وهو يدعم هذا التقييم بعناوين الصحف التي يتذكرها الجميع جيداً والتي تقول: "لا سلطة لأحد No power for nobody!" والتي كانت شعار حركة ١٩٦٨. ولكن حتى الطلاب لم يستطيعوا التخلي عن قوتهم بشكل كامل لأنهم صاغوا: "الخيال للسلطة power to the imagination!" و "كل السلطة للشعب All power to the people!"

وهذا التناقض وما ينتج عنه من عواقب اجتماعية، وبشكل خاص عواقب ومطالب سياسية مجتمعية، لا تراه عامة الناس بشكل مختلف كثيراً، والذي يمكن توضيحه كالآتي:

السلطة عبارة عن مجموع كل إمكانيات التأثير في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهي فرصة في الوقت نفسه لفرض الإرادة الذاتية ضد المعارضة في علاقة اجتماعية. ويمكن أن تتمثل

أسس السلطة في التفوق الجسدي أو العقلي، وميزة المعرفة، والقدرة التنظيمية العليا، وكذلك استغلال هياكل السلطة والخوف لدى المقهورين.

في المجتمعات القائمة على الديمقراطية وفي بعض حقوق الإنسان الأساسية من المجتمعات الإغريقية، تصبح ممارسة السلطة السياسية من خلال الحق والقانون والدستور والرقابة العامة ذات طابع مؤسسي (مأسسة) ومن ثم فهي سلطة معترف بها ومحسوبة. وإلى جانب ذلك، يجد المرء، وخاصة في الأنظمة الشمولية، آليات التأثير (الدعاية السياسية، التلاعب) التي لم يعد من الممكن للفرد أن يحيط بها كممارسة للسلطة.

لا يوجد نظام اجتماعي مع تنظيم اجتماعي معقد يتخلى عن أداة السلطة عنف الدولة (المحاكم والشرطة والجيش والمؤسسات العقابية) لضمان النظام الداخلي والأمن الخارجي للنظام السياسي الاجتماعي. بالإضافة إلى هياكل السلطة السياسية والاقتصادية في الدولة والاقتصاد والمجتمع، فإن موقع السلطة يحدد العلاقات البين شخصية في جميع مجالات الحياة (في الزواج والأسرة والعمل والكنيسة والمسجد، إلخ).

ولتفسير ظهور هياكل السلطة في الحياة الاجتماعية (السياسية، الثقافية، الدينية)، تم افتراض وجود دافع عام للسلطة. وتتم اليوم مناقشة الجوانب الأكثر تعقيداً. ومع ذلك، فإن ظاهرة القوة في تنوعها الهيكلي تظل صعبة الفهم بالنسبة لمعظم الناس. (مقتبس بتصرف عن DIE ZEIT- Lexikon, 2005)

ومن المثير للاهتمام - وفقاً للمؤلف- أن مفهوم السلطة يشبه مفهوم النرجس. فهو أيضاً لديه مسحة متناقضة للغاية. فمؤسس التحليل النفسي فرويد قد عبر عن هذا باختصار دقيق: **إذا كنت تفكر في نفسك أولاً وقبل كل شيء، فلن تعد هناك احتياطات حب متاحة لأناسك.**

ويبدو أن النرجسية مرتبطة بالأنانية وبالتالي فهي ذات صفة مضادة للمجتمع. فعندما نطلق على شخص صفة النرجسية، فإننا نقيمه ونصفه بأنه أناني، يركز على نفسه ولديه ضعف في علاقاته الشخصية. بل أن الشخصيات المضطربة النرجسية يصعب علاجها نفسياً (ويتم قذفها من معالج إلى آخر، وفقاً لشكوى المعنيين). وهنا لن ينفع كذلك اعتقاد بعض الخبراء استنتاج ارتفاع في الاضطرابات النرجسية وصولاً إلى تسمية عصرنا الراهن بـ "عصر النرجسية" مع مؤشرات انهيار نفسي اجتماعي عميق.

وفيما يلي بعض الخصائص المميزة للشخصية النرجسية باختصار:

النرجسية

حب الذات – التمرکز حول الذات- الإعجاب بالنفس- الأنانية

السمات النرجسية = الخيلاء، التقييم الذاتي غير الناقد، الموقف الاستغلالي والأناني، تفاقم الحسد والغطرسة.

يصبح الأمر أكثر خطورة عندما يتعلق الأمر باضطراب الشخصية النرجسية: الخيلاء، الغرور، الأبهة، الأهمية، المباهاة. ويكون الشخص مقتنعاً في الوقت نفسه بشكل غير واقعي بخصائصه الخاصة كالنجاح أو القوة أو البراعة أو الجمال أو حتى الحب المثالي.

يضاف إلى ذلك ضغوطات أخرى كالتوق الجشع للإعجاب المفرط والتوقعات التي لا أساس لها في أن تتم معاملة المعني معاملة خاصة (وبصورة خاصة إذا كانت هناك سمات هستيرية). بالإضافة إلى ذلك، الميل إلى استغلال الآخرين، ولا سيما فيما يتعلق بالعلاقات الشخصية (الشراكة، والأسرة، ودائرة الأصدقاء، وكذلك مكان العمل)، وحتى في الأمور المالية، والمكانة أو المرتبة وما شابه.

كما يلاحظ وجود افتقار غير مفهوم للرحمة والمودة والمساعدة والتعاطف، وبالمقابل الغيرة والشر (مثال الغيرة البغيضة).

تتمثل الصورة التحليلية "الكلاسيكية" السابقة لنمو الرضيع في شخصية توحدية (شديدة التمرکز على الذات)، تكافلية (تعتمد على الدعم الشخصي الوثيق)، سلبية وطبيعية "نرجسية أولية". وبالطبع فإن هذا المنطلق لا يبشر بالخير.

أما اليوم فتحدث عن "الرضيع الكفؤ Competent infant"، الذي يتفاعل منذ البداية بشكل نشط مع بيئته. إن "النرجسية الأولية" التي أدخلها فرويد في المناقشة، لا تصف الحالة النفسية الطبيعية والصحية للمواليد، بل الخلل المرضي.

ومن وجهة النظر هذه على المرء إعادة التفكير في جميع الاستنتاجات الأخرى أيضاً. بل أنه يتم افتراض العكس بالتحديد، وذلك أن النرجسية الصحية تمثل الشروط الداخلية لتلقي العلاقات البين شخصية الناضجة. إذ أن الإنسان، وفقاً للاعتبارات الحديثة، يظل طوال حياته معتمداً على الحصول

على تقدير الآخرين، وذلك ليس فقط عندما يولد كطفل رضيع عاجز تمامًا في العالم. فمن أجل تطوير الشعور بالهوية، فإن الإنسان يحتاج الآخر الذي يعززه من خلال الحب والاعتراف أو حتى يجعل الشعور بالذات ممكنًا. ولا يمكن لأحد وفقًا للمعالجين النفسيين اليوم، الهروب من الاعتماد على الآخرين والرغبة في الاعتراف. وتعد خبرة أن يكون الإنسان معتمدًا على الآخر (أو الآخرين) وعلى كرمه (كرمهم) بطريقة جذرية واحدة من أكثر الخبرات المسببة للألم، وكذلك أكثرها إثارة للسعادة.

السلطة من أجل الهروب من التعلق النفسي

أي أمر يثقل الصدر ويبحث على السعادة أمر طيب وليس مؤلمًا. ولكن إن كان هناك نرجسية مرضية، فإن ممارسة السلطة تتحول إلى استراتيجية لتجنب هذا التبعية. وبالطبع يمكن للمرء حتى أن يمارس التأثير على الآخر أو الآخرين، للضغط عليهم، لجعلهم منساعين، إن لم يكن لإخضاعهم أو لاستعبادهم. وقد يضطر الآخر إلى التعبير عن تقديره دون الحصول هو نفسه على التقدير.

إلا أنه لا يمكن حتى للكثير جداً من السلطة أن تحل محل "الحاجة البدائية" الإنسانية للحب والاعتراف، وهي يمكنها على أقصى تقدير أن تعيد تشكيل هذه الحاجة أو حتى استغلالها. فمن يمتلك السلطة يستطيع فرض الحب والاحترام والتقدير والاهتمام، أو حتى شرائه. إنه يخفي فقط اعتماده الأساسي دون أن يتمكن من التخلي عنه.

وهكذا تبدأ الحلقة المفرغة: ففي كتابها المترجم للألمانية تحت عنوان "أغلال الحب، التحليل النفسي والنسوية ومشكلة السلطة (١٩٩٦) للمحللة النفسية جيسكا بينيامين^٣ تقول "كلما زاد استعباد الآخر، قلّ ما سيختبره ككائن بشري، وكلما زادت المسافة أو القوة التي يجب على النفس استخدامها ضده".

^٢ "روابط الحب": التحليل النفسي والنسوية ومشكلة الهيمنة (١٩٨٨) In The Bonds of Love, noted feminist theorist and psychoanalyst

^٣ جيسكا بنجامين هي محللة نفسية معروفة بمساهماتها في التحليل النفسي والفكر الاجتماعي. وهي تعمل حاليًا في مجال التحليل النفسي في مدينة نيويورك حيث تعمل في كلية برنامج علم النفس لما بعد الدكتوراه بجامعة نيويورك في التحليل النفسي والعلاج النفسي، ومركز ستيفن ميتشل للدراسات العلائقية. جيسكا بنجامين هي واحدة من المساهمين الأصليين في مجالات التحليل النفسي العلائقي، ونظريات الحيز المتبادل، والدراسات الجنسية والنسوية من حيث صلتها بالتحليل النفسي والمجتمع. وهي معروفة بأفكارها حول الاهتمام بكل من التنمية البشرية والساحة الاجتماعية والسياسية. تُعتبر جيسكا بنجامين واحدة من أهم المحللين النفسيين المؤثرين والأكثر تأثيرًا في العقود الأربعة الماضية. هي واحدة من مؤسسي التحليل النفسي العلائقي، وهي واحدة من أوائل من أدخلوا النسوية ودراسات النوع الاجتماعي في الفكر النفسي. شملت دراساتها المبكرة البنية الاجتماعية والنسوية، لكنها عرفت في الآونة الأخيرة بجهودها لشرح الجوانب الكلاسيكية للتحليل النفسي باستخدام العلاقات الموضوعية، والتحليل النفسي العلائقي، والفكر النسوي. قدمت مساهمات كبيرة لمفهوم الذاتية المشتركة في التحليل النفسي. في عام ٢٠١٥، حصلت جيسكا بنجامين على جائزة هانز كيليان عن إنجازاتها في مجالات التحليل النفسي وعلم النفس النسوي ونظرية الاعتراف المتبادل بين الجنسين.

وبما أن هذه الاستراتيجية لا تنجح، ولا يحظى الإنسان الاعتراف (وبشكل خاص الحب)، وربما أكثر أي وقت مضى، فإن المتسلط الذي يعيش خبرة النقص النرجسي يقع في حالة من "الغضب النرجسي". وماذا يفعل؟ إنه يفعل الشيء الخطأ: فيستجيب بزيادة أخرى في تسلطه.

الغضب النرجسي كخطر سياسي

من هذه الديناميكية النفسية يستمد الطابع الإدماني لنمو السلطة واستمراريتها. ويمكن ملاحظة ذلك في العلاقات الخاصة وفي المجال المهني وفي السياسة على حد سواء.

ومع ذلك فإن الغضب النرجسي ليس ناجحًا ولا مفيد للصحة. وفي الحالات القصوى يمكنه أن يتحول إلى "غضب نرجسي مزمن". وهو لا يمكنه تسميم الحياة النفسية للفرد لوحده، بل أنه يمس جماعات كاملة، حتى أن أجزاء واسعة من السكان قد تصاب بعدوى الغضب النرجسي هذه، مثال ذلك من خلال انتهاك الكبرياء الوطني أو الهزيمة العسكرية أو الإهانة السياسية أو الاضطهاد الاقتصادي أو الإهانة الثقافية أو حتى الدينية.

وهذه الأخيرة تمثل لنا مشكلة في الوقت الراهن، تعين علينا أن نختبرها باستمرار. وهنا فإن المسببات لا تتناسب مع رد الفعل في جميع أنحاء العالم في بعض الأحيان. وهذا بدوره يفرض علينا أن ندرك أنه ربما يكون التدمير الزاحف بشكل متخف وتحلل منظومات القيم الثقافية والدينية، على سبيل المثال كنتيجة للعولمة، التي يُنظر إليها على أنها إذلال، ثم تنقلب، كما كانت إلى نوع من ردود الفعل المفرطة من الغضب النرجسي المزمن.

وغالبًا ما يعبر هذا الشيء عن نفسه مبدئيًا على شكل من "نوبة غضب قصيرة الأمد"، ولكن يمكن أن ينتهي في مرحلة متقدمة إلى "حملات منظمة تنظيماً جيداً" أو حتى الانتقام الذي لا نهاية له، كما أشار رائد النرجسية الشهير أوتو كيرنبرغ O.M. Kernberg. ويشرح المعالجون النفسيون هذا بتفصيل في المصطلحات الخاصة بهم، وهو أمر يصعب فهمه للأسف بالنسبة للمبتدئين دون شرح مفصل.

وعلى أية حال فإن الظاهرة المهددة في عصرنا تتمثل في هذا الغضب النرجسي المزمن، الذي يتصاعد حاليًا في العديد من الأماكن في العالم، وللأسف، لا يتم رصده من قبل الغرب إلا عندما يكون هناك شيء "يلتهب"، شيء ما بالمعنى الحرفي للكلمة؛ فقبل ذلك لا يوجد أي مصلحة للاهتمام أو

للمعرفة الكافية، وهو أمر يمكن أن يكون على حساب أولئك الذين تأثروا في النهاية وكذلك كلنا على الطريق.

السلطة كعنصر بناء في الحياة الاجتماعية Power as a constructive component of social life

لم يعد ينظر اليوم للرجسية على أنها مجرد "انشغال فردي بالذات"، بل أصبحت تعبيراً ووسيطاً للحاجة إلى أن يكون المرء محبوباً من الآخرين وأن يعترفوا به ويمنحونه التقدير. فمن ناحية نحن نطمح كأفراد إلى أن نتأكد من فرديتنا وتفردنا؛ ومن ناحية أخرى، نحن - وهذه مفارقة - معتمدون على الاعتراف (والمحبة) من قبل الآخرين، كنا يوضح ويرث Wirth. وهنا يصبح الارتباط بالسلطة مثيراً للاهتمام، إذ أن السلطة لا وجود لها كشيء مجرد، وإنما السلطة تمارس على شيء أو على شخص ما. وكما أن الرجسية دائماً جزء من حياتنا النفسية، فإن السلطة جزء لا مفر منها من الحياة الاجتماعية منذ غابر الأزمان.

حتى علماء الاجتماع السابقين ومنهم ماكس فيبر Max Weber قد عرفوا، السلطة على أنها "كل فرصة لفرض إرادتك ضمن علاقة اجتماعية وحتى ضد المقاومة، بغض النظر عما تستند إليه هذه الفرصة".

وقد يكون ذلك مقبولاً أو لا يكون (كما هو الحال بالنسبة للساسة الجدد). وللتمسك بهذه المهنة، كما فسر خبراء العلوم الاجتماعية السابقون الجوانب السلبية للقوة من خلال "عدو البشرية" المبتذل، والمألوف، ألا وهو "الغرور الشديد" - [الغطرسة] -.

لم يتغير الكثير في العقود الأخيرة، وخاصة تلك التي تعتبر الغطرسة "مرضاً مهنيّاً" للسياسيين (على الرغم من أنه لا ينبغي التكتّم على أن هناك مؤسسات ثقافية ورجال أعمال ورياضيون وإعلاميون ومسؤولون وغيرهم كثير، لا يبدو أنهم يقومون بعمل أفضل بكثير).

وعليه فإن ممارسة السلطة تصبح مشكلة عندما تصبح الرجسية المرضية للزعيم محددة للوظيفة القيادية، وعندما يستخدم الزعيم السياسي سلطته للتعبير عن صراعاته الرجسية اللاواعية أو كي يتجنب وعي هذه الصراعات حسب التعبير التخصصي لويرث Wirth كنفساني ومعالج نفسي.

ومن ناحية أخرى، يجوز للقائد أن يسمح لنزعاته النرجسية الصحية والعنوانية أن تصب في عمله – بشكل بناء. لأنه حسب أوتو كيرنبرغ - O.F. Kernberg: "إن ممارسة السلطة جزء أساسي لا مفر منه من القيادة ويتطلب من القادة أن يتمكنوا بسهولة دون أية مشكلة من الاستفادة من الجوانب العدوانية لشخصيتهم." لأنه في ذلك يكمن نوع من التحفيز يحتاجه بشكل خاص أولئك الذين يجلسون في "الطوابق العليا"، لأن "الجو هناك خائق" وهم وحيدون ، وهو ليس أقل ما يفسر حقيقة أنهم اضطروا ذات مرة أن يمرروا بـ "جولة الثور Ox tour" ^٤ من الأسفل إلى الأعلى - مع كل المعارف التي من المأمول أن تكون متاحة لهم في الأعلى.

ويمكن صياغة ذلك بطريقة ملموسة: ينبغي للقائد أن يكون فخوراً بعمله وبالإنجازات التي حققها لمجتمعه ولصالحه. وينبغي أن يزداد تقديره لذاته من خلال هذه النجاحات، وأن يحق له الحصول على الاعتراف بهذا والاحتفال بنجاح، وإذا لزم الأمر أن يعيد ترشيح نفسه وانتخابه. وهذا أمر صحي، فالعمل والنجاح يحفزان النرجسية. كما ويعمل هذا على تطوير شخصية المعني وتطوير مجموعته (تحفيز هوية المجموعة على سبيل المثال).

النرجسية المرضية وإساءة استخدام السلطة

غير أن الأمور تختلف في إساءة استخدام السلطة وذلك عندما يستخدم الشخص منصبه لإرضاء الاهتمامات والاحتياجات التي لا علاقة لها بالمهمة الموضوعية لدوره الاجتماعي، والتي تتمثل أساساً أو حصرياً في الحصول على التملق الشخصي إرضاء لغروره، أي خدمة لنرجسيته المرضية، وبعبارة أخرى: تتميز النرجسية المرضية، وعلى النقيض من النرجسية الصحية في أنه يتم تسخير الناس للعمل على استقرار تقدير الذات لدى المتسلط من خلال استخدام السلطة، أي أن الناس في نهاية المطاف يدفعون قسراً نحو القيام بأفعال ليست من طبيعتهم.

بالإضافة إلى ذلك يرى ويرث Wirth إن إساءة استخدام السلطة تصبح إشكالية بشكل خاص عندما يمر المجتمع بأزمة وجودية. فإذا استولى في هذا الوضع زعيم سياسي مضطرب نرجسياً على السلطة لمجرد أن جزءاً كبيراً من المجتمع يشعر بالتهديد والظلم وتعمل "الصدمة" المشتركة (أي الجرح

^٤ جولة الثور عبارة عن مصطلح ذو معنى سلبي من العلوم السياسية الألمانية وبحوث الأحزاب، والذي يستخدم في مسار المسارات الوظيفية في السير الذاتية السياسية ويصف الالتزام طويل الأجل بالمنظمة. هو وسيلة لتأهيل السياسيين الذين يتعلمون حرفتهم من المناصب الإدارية البلدية السفلى.

(النفسي) على التغلب على الأزمة الوجدانية الشديدة، عندئذ تكون المشكلات والعواقب قد أصبحت مبرمجة وما علينا سوى أن نلاحظ التاريخ الذي يمدنا بأمثلة وفيرة.

وبسبب الاهتمام العام والكبير لوسائل الإعلام، وما ينجم عن ذلك من الحصول على الهيبة الاجتماعية فإنه غالباً ما يكون من الممكن للمسؤولين السياسيين استغلال حاجتهم المفرطة للاعتراف ونزعتهم للعظمة والهيبة الاجتماعية وطموحهم بشكل وظيفي، بحيث أنهم لا يحظون بالكسب النرجسي عبر ذلك فحسب وإنما يخلقون عن طريق الأنانية الجامحة الظروف للكسب المستمر والفوز والتحكم بالآخرين، أي باختصار يصبح الفوز جزءاً من طبيعتهم.

وهذه الأنماط من الفائزين لا ينظرون لأنفسهم في الخيال على أنهم عظماء وأذكي من غيرهم وناجحون ومتميزون فحسب بل يرون أنفسهم كذلك في مجالات خاصة. وهذا ما يجعل الوضع أكثر تعقيداً. فمن جهة لا يمكن الإنكار عليهم المعرفة والرغبة في تأكيد الذات والنجاح في نهاية المطاف، ومن ناحية أخرى، فإن الحس العام يظهر أن هناك شيئاً ما ناقصاً، ذلك الشيء الذي ينبغي له يجعل من الإنسان إنساناً. وهذا غالباً ما يتم قمعه، خصوصاً في المهن السياسية، ولكن أيضاً الاقتصادية والثقافية والرياضية... الخ، في سن مبكرة- ولا يعود قابلاً للإيقاظ في المنصب والكرامة.

وهذه الأمثلة من السمات الصحية، والتي يُفْتَقَرُ إليها عندئذ هي الشكوك الذاتية الواقعية والحساسية والتعاطف (الاهتمام) بالآخرين والقدرة على الاستبطان (الرؤية الداخلية الضرورية، لا سيما نقاط الضعف) والتفكير التأملي، ومن ثم المسافة الصحية لاتخاذ القرار، بالإضافة التردد أو الاكتئاب الذي يشل على الإطلاق.

فإذا ما ظهرت علامات التهديد من واحدة من تلك السمات وخاصة تلك الأخيرة، فإنه لا يتم استخدام ذلك للتأمل والتفكير الذاتي، بل يُعتبر تقويضاً للعقلية المنتصرة التي يتم الحفاظ عليها بشكل مقصود وبالتالي على أنه تقويض مهدد للسلطة والتأثير والمال وغيره.

السلطة - غير المعترف بها والمقبولة؟

في كثير من الأحيان لا يدرك المتسلطون أنهم متسلطون. وعلى ما يبدو فإن إحدى خصائص علاقات السلطة أن يتم إنكار السلطة قدر الإمكان (غالباً حتى من كلا الجانبين، حتى من قبل "المحكومين"). فالمتسلطون يرغبون بقمع هذه المعرفة، وإلا فسيتعين عليهم التعامل دائماً مع مسألة شرعيتهم

(قانونيتهم). وكما أشير أعلاه، حتى أولئك الذين يضطرون إلى الاستسلام أو الخضوع للسلطة غالباً ما يميلون إلى إنكار علاقات القمع هذه، لأن ذلك يسيء إلى نرجسيتهم عندما يتوجب عليهم أن يتخلوا باستمرار أنهم مقموعين وغير فعالين.

بالإضافة إلى ذلك، قد يكون من المخاطرة الإشارة إلى علاقات القوة "المنحرفة". فالجمهور لا يريد ذلك، فهو يخل بالسلم الاجتماعي ويجر بالطبع العناد غير البناء الكامن خلفه. وأي شخص يثور ضد علاقات السلطة تحوم حوله الشبهات ولن يكون هناك نقص في التهم الموجهة إليه. ومن أمثلة ذلك إنه شخص يطمع هو نفسه في السلطة (من الناحية التحليلية: إنه يسقط تعطشه للسلطة)، أو مصاب بجنون العظمة (الوهم) أو أنه ببساطة يززع الوثام السلمي للمجتمع ويوهن نفسية الأمة حسب ويرث Wirth.

وبقدر ما تشكل النرجسية بشكل عام والسلطة مع خلفياتها النرجسية على وجه الخصوص ظاهرة من ظواهر الحياة اليومية إلا أنه ليس بالضرورة لها أن تشكل ظاهرة مرضية ولا ينبغي لها أن يكون كذلك، حتى في الحالات الحدودية. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: ماذا لو كان الأمر يتعلق باضطراب الشخصية النرجسية، أي بشخص لديه اضطراب نفسي واضح؟ فماذا عن هذه الشخصية المضطربة نرجسياً سواء كانت في السلطة أم في صراعها على السلطة على حد سواء؟

السلطة واضطراب الشخصية النرجسية

لنعد مرة أخرى إلى "خبير" أبحاث النرجسية، الطبيب النفسي الأمريكي كيرنبرغ O. F. Kernberg، الذي يصف اضطراب الشخصية النرجسية على النحو الآتي: "التمجيد المفرط [المتطرف] للذات، والذي يصل إلى حد دمج الأجزاء المثالية من الآخرين في الذات (يتم تمثيلها في ذات الشخص، وعزو هذه الصفات لنفسه). وبمساعدة هذا التمجيد الذاتي self-idealization، فإن الشخص يتجنب أي اعتماد على الآخرين، فلديه كل ما يحتاجه - على ما يبدو. ومن خلال القيام بذلك، يحاول تجنب كل الإحباطات (من اللاتينية: frustra الإحباط = دون جدوى) والعدوان.

وفي الحياة اليومية يلتفت هؤلاء الأفراد النظر إليهم من خلال المبالغة المفرطة بالعظمة ("أنا ربكم الأعلى") والتركيز على الذات ("أنا-ثم أنا-ثم أنا"). وعلى الرغم من أنه يمكن في بعض الأحيان كسر هذا بسبب الدونية المفاجئة والعنيفة تماماً، إلا أنه للباثولوجي [المرضي pathological] هنا

بصيص من الأمل في هذا الصدد: فعادةً ما يلتقطون أنفاسهم مرة أخرى ثم يصلون مرة أخرى إلى القمة القديمة للعظمة الاستبدادية والمحرومة، على الأقل في خيالهم الخاص.

كما أن هذا التفخيم الذاتي غير الطبيعي يقود إلى عواقب وخيمة ملموسة: القسوة أو الاستهتار بالآلام الآخرين، وفكرة الأحقية، والميل المزمّن للتقليل من قيمة الآخرين، والسلوك الطفيلي والحاجة المستمرة إلى الإعجاب من الآخرين والاعتراف بهم على أنهم الأعظم، وعلى الأقل أن يكونوا في مركز الاهتمام الدائم. فالكفاح من أجل تمجيد الذات ليس بالأمر السهل.

وبالنسبة لهؤلاء الأشخاص فإن أول ما يلفت النظر هو الشخصية المنظمة structured personality ("صعدت من لا شيء..."). إلا أن هذا خطأ. إذ يمكن العثور على شخصيات مضطربة نرجسيًا في جميع الطبقات، من الفاشلين إلى الأكثر نجاحًا. وبالطبع فقد وفرت مناصب السلطة الاجتماعية دائمًا الظروف المثالية لإحياء هذه الجوانب. والتاريخ مليء بمثل هذه الأمثلة؛ ففي بعض الأحيان يتساءل المرء عما إذا كان سيثمر شيء ما على الأقل من دون هذه النرجسية الهامشية وكيف يمكن أن يبدو التاريخ بدون هذه الأمثلة.

الخطر: الضعف أو حتى العجز

ومع ذلك فإن وضع المتسلطين يتميز أيضًا بحقيقة أن هناك جانباً خلفياً، مخيفاً، كما يحذر ويرث Wirth فمن ناحية فإن وسائل الإعلام تسهل على القادمين الجدد المضطربين النرجسيين المضي قدماً. وهو ما يمكن قراءته ورؤيته وسماعه كل يوم. ومن ناحية أخرى فإن المستفيد الإعلامي أو النجم في النهاية يتعرض دائماً لخطر الإغراق مرة أخرى. ويعترف الصحفيون بذلك علانية بهذا الخطر. فمن يفتح نفسه فهو مفتوح- لكل شيء ولكل شخص. فهم يشجعون على الصعود من جهة ثم يهبطون بهم إلى أسفل السافلين من جهة أخرى. (تعليق الصحفي: "أولاً، يجبروننا على ذلك ثم يشكون من أننا نريد معرفة المزيد!"). وهذا ليس بالأمر الجديد، حتى لو تم تعزيزه في عصر الإعلام، ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار عند الصعود.

إن أي شخص لديه نرجسية طبيعية لا تزال ضمن الحدود المقبولة سيكون أكثر قدرة على قبول هذه القيود الاجتماعية والنفسية الداخلية على التحرك. لكن أولئك الذين يعانون من اضطراب في تقدير الذات ويحاولون تعويضه بشكل مفرط من خلال الصورة الذاتية المبالغ فيها بشكل كبير والذين يتم تقويتهم بالفعل من خلال الوصول إلى السلطة وممارستها - ولكنهم أيضاً يصبحون أكثر عرضة

للخطر إذا تراجعت هذه المساعدات فجأة. هذا يبدأ في مجال العلاقات الشخصية في الحياة اليومية، في العلاقات بين الأزواج وينتهي "في الأعلى" - بغض النظر عن كيف وأين وبأي شكل من الأشكال يحصل ذلك.

فإذا ابتلى النرجسيون بشكوكهم الذاتية المستمرة، فإنهم يحاولون زيادة السيطرة على الآخرين وفرض إرادتهم عليهم، ويثبتون باستمرار لأنفسهم أنهم الأكثر قيمةً، وذكاءً وتفوقاً. وعلى الرغم من أن هذا مزعج إلا أنه لا يزال مقبولا ضمن حدوده. ويصبح الأمر قاتلاً أكثر فأكثر إذا لم تعد صراعات السلطة هذه موضوعية، وتحولت إلى مجرد العمل على استقرار تقدير الذات (لفرض إرادة الفرد، بصرف النظر في ماذا وبأية وسيلة، عبر ماذا وما هي العواقب).

وبالطبع فإن حتى أبسط المراقبين سوف يدرك أن الشخص الذي يعتمد اعتماداً كبيراً على الاستقرار المطرد في تقديره لذاته المزعزع من خلال دليل ملموس على عظمتة (وموقفه!) سوف يتمسك بهذا الموقف الذي تم إنجازه ذات مرة ("التمسك بالكرسي")، لأن ممارسة هذه القوة هي الضمان الوحيد لحالة التوازن النفسي.

ولكن ليس كل شريك يعارض مثل هذه الهيمنة (على سبيل المثال في العلاقة الزوجية). ففي بعض الأحيان يمكن أن يخضع الآخر للتعديل والخضوع المطلوبين. فقد ميز المحلل النفسي ويلهلم رايش بين نوعين من النرجسيين وصفهما بمطلب خفي على النحو الآتي:

- النرجسي ذو الثقة المفرطة ويعرضها للآخرين استعراضياً، والذي يحاول تعويض مشاعر النقص الكامنة (الخفية) وهذا النمط يمكن نصحه: لا تفخم من نفسك بهذا الشكل، فأنت لست صغيراً على الإطلاق"

- النرجسي الذي يعاني من شعور واضح بالنقص، وتكمن خلفه أوهام خفية بالعظمة. وهذا يمكن نصحه: "لا تصغر من نفسك، فأنت لست كبيراً جداً."

ونتحدث اليوم وفي المصطلحات التحليلية النفسية عن النرجسية القضيبية phallic narcissism (انظر أعلاه الثقة بالنفس المبالغ بها والمعرضة بشكل استعراضي ضد مشاعر الدونية الكامنة) وعن النرجسي التكاملي complementary narcissism. وهذه الأخيرة تميز الشخص الذي يمارس في التفاعل اللاشعوري بنيتين من الشخصية تكملان بعضهما ومن ثم يصبح من الممكن تحملها تماماً. وهذا ما يسمى أيضاً بالتواطؤ Collision، أي التفاعل اللاشعوري لشريكين متكاملين.

قادة وتابعين من وجهة نظر مرضية

من الطبيعي أن نجد كل هذا في أية تركيبة أخرى بما في ذلك بين القادة السياسيين و "مجموعته الكبيرة" ("جمهوره"). وبالتالي، فإن المتعصب الذي لديه حاجة للاعتراف لا يحظى بالنجاح كقائد سياسي، إلا إذا وجد الجمهور المناسب. وهنا وعلى الرغم من سريان القواعد نفسها المذكورة أعلاه، إلا أن هناك مشكلة في القطب الثاني: فقد يكون من السهل رفض الشخص المتعصب الذي يحتاج للاعتراف على اعتباره شخصاً مريضاً؛ ولكن على الجانب الآخر ماذا عن "الجمهور" [الأتباع]؟ وقد يمثل هذا شريحة كبيرة من السكان. هنا ستواجه المرء صعوبات جدلية. هل جميعها مريضة كذلك، أو على الأقل حدودية؟ إن هذا السؤال يظل مفتوحاً في ضوء الأحداث السياسية الماضية والحالية.

وعليه يكون النرجسيون المرضيون ناجحين بشكل خاص، إذا كانت ممارسة سلطتهم تمنحهم أيضاً الاستقرار الداخلي. ونتيجة لذلك، فإنهم-من المفارقات- يعتمدون أيضاً على السكان الذين يضطهدونهم. لأنهم إذا كانوا يعتمدون على المدخول النرجسي، والحب والاعتراف من المحكومين، فإن لديهم الكثير من الفرص للتلاعب بهم واستغلالهم.

إن الحاجة القوية للمتسلطين إلى أن يكونوا محبوبين وأن يحظوا بالإعجاب تجبرهم في نهاية المطاف على تلبية رغبات الجمهور وتحقيق توقعاتهم. وينطبق هذا أولاً على اتصال المتسلطين بأقرب المقربين لهم، ثم بأعضاء حزبهم، ومختلف جماعات الضغط و"الناخبين الذين يتم تكريمهم". وفي الواقع ووفقاً لاستنتاج ويرث Wirth، يجب أن يكون لدى الشخص المعني قوة الأنا لتحديد نفسه واتخاذ قراراته من وجهة نظر موضوعية تضع مصلحة الكل في الاعتبار. لكن حاجته النرجسية غالباً ما تمنعه، مما يجعله في بعض الأحيان عبداً للحكم . مفارقة الواقع . Paradox Reality.

خلاصة القول: النرجسية المريضة في السياسية والاقتصاد والمال والثقافة والإعلام والعلم والرياضة (المنظمات) والجيش وفي كل ركن من أركان مجتمعنا، وصولاً إلى أصغر خلية، عندما يشكل شخصان زوجاً، فإن هذه النرجسية قديمة قدم الإنسانية وموجودة في كل مكان، وسوف ترافقنا إلى نهاية أيامنا. وما زال خطر الانفجار كبيراً وذلك بمجرد التفكير في المجتمعات السابقة والراهنة مع المستبدين.

ومع ذلك، فإن النرجسية هي عملة بوجهين: إن النرجسي بدون نظير كبير، سواء كان هذا النظير شخصاً واحداً أو جمهوراً أو حتى بلد بأكمله، فهو ليس شيئاً يذكر. لذا، هنا أيضاً تلعب التطورات التاريخية دوراً، بدءاً من السيرة الذاتية للفرد إلى تاريخ الأمة أو القارة أو حتى جميع أنحاء العالم.

ومتن المعروف أن وسائل الإعلام لها تأثير تكويني كبير. ومما يبعث الأمل أنه مازالت هناك بعض الأمم يمكن فيها إيقافهم عبر مراقبين يقظين (أو إلى درجة معينة في الديمقراطيات الغربية؟). فلا بد إذاً من اليقظة.

هل العلاج النفسي لديه فرصة؟

في النهاية، يطرح السؤال نفسه: هل يمكن علاج النرجسية المرضية علاجاً نفسياً؟ الأمر لا يبعث على التفاؤل بشأن هذه النقطة، ولكن هناك بالفعل احتمالات، خاصةً إذا كان المعالج قادراً على التكيف مع هذا المتعالج. ومع ذلك، فإن هذه مهمة من نوع خاص لا تناسب الجميع. بالإضافة إلى ذلك، أين هو النرجسي الذي يذهب طوعاً للعلاج؟ من أجل أن يرضى "بإعادة التربية الإيجابية" إذ أن هذا ما يشكل الهدف النهائي من العلاج.

وفي الواقع بقدر ما يتعلق الأمر بالعلاج بالتحليل النفسي للأثرياء والمتسلطين، فإن المعالجين النفسيين ذوي الخبرة والشهرة مثل كريميريوس J. Cremerius قد أبدت شكوكها. لأنه ليس سرا أن "المرضى الذين يشغلون مناصب سياسية واقتصادية عالية نادرا ما يخضعون للمعالجة التحليلية". ولماذا؟

تخلص كريميريوس إلى أنه من الممكن للأثرياء والمتسلطين وبسبب وضعهم المتميز ونفوذهم الاجتماعي استيعاب "عصابتهم في شكل اجتماعي" بحيث لا يُلاحظ وجوده كاضطراب نفسي ولا يضطرون إلى المعاناة منه. فالمتسلط يعيش احتياجاته العصابية في المجتمع من دون عائق. انه ينفس عن عصابيته بدلا من تطوير ضغط (بناء) بالمعاناة.

(ويقصد بالتنفيس أو التصرف [أو الفعل الزللي بشكل أدق] في التحليل النفسي السلوك المتسرع في أغلب الأحيان، والذي يحاول جعل الخبرة الذاتية المرة محمولة أو إبطالها من خلال القيام بأفعال في مناطق مختلفة تمامًا).

ولكن حتى هذا له حدوده، كما يمكن الاستنتاج من التاريخ ومن المعارف من البيئة القريبة أو البعيدة. إذ لا يمكن تحمل البنية التسلطية النرجسية إلى ما لا نهاية. ويصبح الأمر بالغ الأهمية بالنسبة لأولئك المقهورين، خاصة عندما تتضخم النرجسية السياسية لتصل إلى حد تأليه الذات (عبادة الصنم).

وقد يبدو هذا غير مناسب بعض الشيء، لكنه ليس كذلك، ليس بالنسبة للتاريخ الألماني منذ ما يزيد قليلاً عن نصف قرن، ولا بالنسبة للعديد من الأمثلة المخيفة في عالمنا اليوم. ويطلق المعالجون النفسيون على مثل هذا الشيء تسمية "عقدة الله": القوة التي "تتشبه بالله" في ممارسة الحياة والموت، لتكون مخلوقات خارج الطبيعة تقبع فوق كل البشر، تهذي بهوامات القدرة الكلية في كل اتجاه وانتهاء بالسادية القاتلة.

وهذا النوع من نرجسية السلطة يصبح معنداً بشكل خاص عندما يترافق أخيراً مع فقدان للواقع غير قابل للتصحيح، كما كان الحال، على سبيل المثال ومنذ وقت ليس ببعيد في أنظمة الحكم في دول أوروبا الشرقية في الكتلة الشرقية وكما هو الحال في أنظمة الشرق الأوسط. فإذا ما أضيف إلى ذلك لحظات من الأفكار (الهذيان) بجنون العظمة تنهار عندئذ كل السدود، كما نعلم من الطغاة العظام في

النصف الأول من القرن العشرين - وليس هناك نقص في لحظات جديدة والقرن والرابع الأول من القرن الحالي مازال شاهداً على ذلك.